"عصرنة اللغة" بين النظرية والتطبيق(*)

أ. د. إيمان السعيد جلال

هل تقبلون مصطلح "العصرنة"؟ وهل نحن بحاجة، إليه ومضطرون إلى قبوله واستعماله إن كان صحيحًا؟

ورد في "معجم اللغة العربية المعاصرة" وفي "معجم الصواب اللغوي" للدكتور أحمد مختار عمر لفظُ العصرنة بمعنى: جعل الشيء عصريًا متمشيًا مع روح العصر، وقال إن العصرنة تعني التطوير: يجب علينا عصرنة أفكارنا.

نحن إذًا مع الوزن الفعلي "فَعْلَنَ"، ومصدره "فعلنة"، وهو مرفوض عند بعض اللغويين لعدم وجود هذا الوزن في أوزان الأفعال، ويقول آخرون إنه وزن مستحدث، لكن د. مختار يقول إن رتبة اللفظة "عصرنة" صحيحة؛ مستندًا إلى أن ألفاظًا كثيرة رُويت عن العرب على وزن فَعْلن: فعلًا وصفةً، وينقل عن أبي العلاء في رسالة الملائكة قوله: "ولا أمنع أن يجيء الفعلُ على فَعْلَنَ ... لأن الاسم إذا جاء على ذلك وجب أن يجيء عليه الفعل؛ إذ كان الاسم أصلًا. وقد قالوا: ناقة رعشنٌ وامرأة خلبنٌ".

وقد أقر مجمع اللغة العربية المصري استخدام هذه الصيغة لوجود نظائر لها في القديم، كما في "رهبنة" و"برهنة"، وانطلقت العربية المعاصرة تستعمل هذه الصيغة، نحو: "شرعنة"، و"عقلنة"، و"ألسنة"، و"علمنة". والمعجم العربي القديم والحديث يعرف في معنى جعل الشيء عصريًا الفعلَ "عصَّرَ" بمعنى جدَّدَ وحدَّثَ، ويعرف المعجم الحديث "العصرية" مصدرًا صناعيًا من العصر، يُستخدم عادة صفة: "مفاهيم عصرية"، فهل نقبل العصرنة؟

نعودُ إلى الجذر (ع ص ر)، وننظر في فلسفة المعنى، فأصل المعنى المادي للعصر هو أن تضغط الشيء لتستخرج ما فيه من سائل، فيُعصرُ ما له دُهنٌ أو شراب أو عسل، قال تعالى: ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**﴾ [يوسف: ٣٦]، وكذلك: ﴿**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾ [يوسف: ٤٩]، وفي الآية الثانية تعبيرٌ عن زوال النعمة: "يعصرون عنبًا وسمسمًا وزيتونًا. وقال بعض المفسرين يعصرون أي ينجون من الجَدْب؛ لأن العُصْرة هي المنجاة. وتقول العرب: لا تكن رطبًا فتُعصر، فالرطب هو الذي يُعصر ، والثوب يُعصر لنستخرج ماءه بليِّه، ومعنى اللَّي والضغط موجود في مصطلح الإعصار، قال تعالى: ﴿**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**﴾ [البقرة: ٢٦٦]، الإعصار: "منطقة ضغط جوي منخفض، تتحرك فيه الرياح بشدة حلزونيًا نحو مركزها، على عكس عقارب الساعة في نصف الكرة الشمالي، ومع العقارب في نصف الكرة الجنوبي".

(*) ألقيت هذه الورقة البحثية في احتفال مكتبة الإسكندرية باليوم العالمي للغة العربية، في ١٩/ ١٢/ ٢٠١٦م.

هل يمكن أن نتبين في العصرنة نوعًا من استخراج واستخلاص خلاصات وعصارات العلوم والفنون لجعل الشيء عصريًا متجددًا؟ يدعم هذا المعنى أن العَصْر يعني فيما يعني "العطية"، عَصَرَه يَعْصِرُه أي أعطاه.

نعود إلى عصرنة اللغة، ونسأل: هل هي عصرنة اللغة، أم عصرنة الدرس اللغوي، أم عصرنة تدريس اللغة؟ تركز هذه الكلمة على عصرنة اللغة، ولا تستبعد عصرنة الدرس والتدريس.

العصرنة من منظور الفكر اللغوي:

إن التطور اللغوي ومحاولات تحديث اللغة تترتب على محاولات تطوير البشر للمفاهيم والتصورات، ويحتاج الجهاز الذهني التصوري دائمًا إلى المزيد من التعبيرات، وإلى إعادة فك التعبيرات الموجودة وتركيبها، ولذلك تظهر مفرداتٌ وتعبيرات، وتختفي أخرى، فيقع في الذخيرة اللغوية ما يُصَنَّف بنادر ومهجور وغير مستعمل. إن حاجة الذهن التعبيرية وتطور الأشياء هو الذي تفرض تطوير اللغة أو عصرنتها.

العصرنة من المنظور الاجتماعي:

يقول جون أوستين في كتابه في نظرية أفعال الكلام "كيف ننجز الأشياء بالكلام": إن اللغة ليست أداةً أو وسيلةً للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنما هي وسيلتنا للتأثير في العالم، وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كليةٍ"، فهل يمكن أن يحدث هذا بلغة لا تجددُ دماءها؟ إن اللغة سلطة في المجتمع، وإن هناك علاقةً جدلية قوية بين اللغة والمجتمع، فالتغيير اللغوي يقع بالضرورة في مجتمع يتغير، وإذا كنا نسلم بأن اللغة ظاهرة اجتماعية، فإننا لا بد أن نسلم بأنها في حالة تغير مستمر يقطعه بعضُ مراحل الثبات. قد يكون بعض التغير اللغوي عملًا فرديًا، وقد يكون عملَ مؤسسات، وقد يكون عملَ المجتمع كله.

ولا يحدث التغير اللغوي في قفزات، ولا يقع بين يوم وليلة، ولا يمكن أن نقول إنه في سنة كذا استخدم الناس من الظواهر اللغوية كذا وكذا، كأن الناس في مطلع عام جديد قد قرروا أن يستخدموا هذا اللفظ أو هذا التعبير. كانت الدراسات اللغوية الحديثة ترصد تغيرات اللغة عبر قرون، والآن ومع التطور السريع، وانتفاضة اللغة يمكن أن نرصد تطورات في عقود أو ربما في سنوات.

هل هذا المجتمع الذي انطلقت طاقاته في موجات ثورية يمكن أن نكبل طاقاته التعبيرية في خطابه الثوري الشعبي في هتافاته وشعاراته وتغريداته ومحادثاته على وسائل التواصل؟

قبل سنوات كان الناس يُفَصّحون لغتهم بمجرد أن يمسكوا بالقلم، فإذا استبدلنا بالقلم لوحة المفاتيح هل نجد أن ذلك يحدث الآن؟ أم أنهم ينطلقون في التعبير عن أنفسهم بلغتهم العربية الخاصة؟ هل هذه عصرنة؟ ولِمَ لا؟ إنها عصرنة ولكن تحتاج إلى ضوابط.

إن اللغة سلطة، يفعل بها الإنسان فِعله في البشر، وكثيرًا ما يفعل ذلك دون تفكير في هيمنتها وخطرها. كثيرًا ما يستعمل اللغةَ دون وعي بقوتها وتأثيرها. إن الذين ينسجون أحلام الناس ينسجونها

باللغة، ولقد عظمت سلطةُ اللغة عندما أصبحت كل الرسائل متاحة عبر وسائل الإعلام والتواصل. وقد مر ذلك في العصر الحديث بمراحل كبرى، أولها: نشأة الصحافة، وثانيها: ظهور البث الإذاعي، وثالثها: ظهور البث التلفزيوني، ورابعها: استحداث الإنترنت (ومنه وسائل التواصل). وعبر هذه المراحل متتابعة متكاملة تعاظمت سلطان اللغة.

أين المشكلة إذًا؟

إن العرب ينظرون إلى لغتهم بوصفها عماد قوميتهم، وأنها حملت رسالة الإسلام .. وما زالت دراسة العربية مرتبطة بكل درس إسلامي في علوم القرآن والفقه والعقيدة، وغيرها. واللغة جوهر الثقافة العربية، وعلى الرغم من أن العرب مختلفون في الدين (فليس كل العرب مسلمين)، فإنهم جميعًا يعبدون الله باللغة العربية. العرب كلهم مشتركون في مركزية الفصحى، والافتتان بالكلمة، وإبداعُ اللغة هو فن العربية الأكبر، ولذلك يشعر العرب دائمًا بالقلق على لغتهم من الضعف أو الضياع!

ماذا يقول الواقع اللغوي؟

يقول إننا نتعلم مفردات العصر باللغات الأجنبية "بخاصة الإنجليزية"، ويقول إن المبتكرات والمنجزات الحضارية نستجلبها من الخارج ومعها اسمها الأجنبي، فيشيع الاسم شيوع السلعة أو الخدمة، فيبدأ اعتراض سدنةِ اللغة وحماتها الذين يستهجنون كل ما يمس العربية ونقاءها، ويحاولون وضع اسم عربي يتناسق مع نظام اللغة العربية صوتيًا وصرفيًا .. فيرفض الناس الاسم الجديد ربما لثقله، وربما لغرابته بعد شيوع الاسم المستورد.

ويقول الواقع اللغوي أيضًا إن العرب يكتبون في وسائل التواصل الاجتماعي وغرف الدردشة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، ويستعيضون عن الأصوات العربية غير الموجودة باللاتينية بالأرقام العربية، وإن العامية تسود، وإنْ كَتَبَ بعضهم بلغة أرقى من العامية فإنها تكون متحررة من ثوابت اللغة في صرفها ونحوها وتركيبها. ونتيجة لانتشار وسائل الإعلام والتواصل واتساع التداول والإلحاح على الصيغ الجديدة فرض الواقع اللغوي نفسه.

إنني لستُ من دعاة العامية، وأن نستبدل العامية بالفصحى في مجالات الاستعمال الكتابي، لكنني واقعية، والواقع اللغوي يقول إنها موجودة، وإن كل من حاربوها ذهبوا وبقيت .. فلنعالجها ولا نقاومها.

ويمكن أن نحدد عناصر المشهد في:

١. يخترق مستعملو اللغة العربية ثوابت اللغة وقواعدها، ولا يهتمون إلا بأن يجدوا اللغة المرنة التي يعبرون بها عن أفكارهم ومقاصدهم كتابةً وحديثًا، وهؤلاء بحكم عدم التخصص يفعلون باللغة الأفاعيل.

٢. هناك أفراد ومؤسسات تجتهد في تطوير اللغة وعصرنتها، وتضع أسسًا وضوابطَ وآلياتٍ لتطوير اللغة من جانب وحماية ثوابتها من جانب آخر .. لكن ضوابطهم للأسف غيرُ ملزمة.

٣. هناك فريق من الباحثين اللغويين يتابعون بحيادٍ وموضوعية، ويرصدون ويحللون، ويضعون هذه الظواهر موضعها من الدرس اللغوي الاجتماعي.

٤. هناك فريق من المحافظين المتشددين يخطِّئون كل ما يحدث.

والسؤال الآن: هل هذه المشكلة جديدة؟

ظهرت فكرة تحديث اللغة منذ خرج المسلمون من شبه الجزيرة العربية فاتحين بُلدانًا في الشرق والغرب، واختلطوا بمجتمعات جديدة وحضارات مختلفة لم يكن في لغتهم ما يعبرون به عنها.

وفي العصر الحديث ومنذ القرن التاسع عشر عندما انهمرت الألفاظ والأساليب الحديثة الدالة على مبتكرات العصر، ونَشَطت حركة الترجمة وبدأت الحياة النيابية وتحقيق شيء من الوعي السياسي استوجب ظهورَ الصحف التي تعبر عن الرأي العام وتوجهه، وفرض ذلك كله حركة تحديث لغوي فقامت هيئات من مثل مجمع البكري وجماعة دار العلوم، محاولين ابتكار البدائل، ثم أسس مجمع اللغة العربية المصري في ثلاثينيات القرن العشرين .. لكن الناس كانوا يرفضون ما تأتي به هذه الهيئات.

واللافت أن البدائل التي رفضها الناس في حينها .. قبلوها بعد فترة، فما لبثوا أن قبلوا الشرطة بدلًا من البوليس، ودار الكتب بدلًا من الكتبخانه، والمستشفى بدلًا من الاسبتالية، والقطار بدلًا من الوابور، والفندق بدلًا من اللوكاندة، وكرة القدم بدلًا من الفوت بول، والسيارة بدلًا من الأوتوموبيل، والشطائر بدلًا من الساندوتش.

كيف واجه المشتغلون والمهتمون بالعربية المشكلة، معترفين بحق الناس في التعامل بلغة مرنة متطورة تفي باحتياجاتهم، وفي الوقت نفسه محافظين على نقاء اللغة؟

على مستوى الألفاظ: ساعد البناء الشكلي المجرد للعربية على تطبيق منهج الاشتقاق القياسي، فالجذر الثلاثي يوفر نظريًا احتمالات تصل إلى أربعٍ وأربعين صيغةً للمصدر، وهذا دليلٌ على المرونة النظرية الخالصة كما يقول وليم رايت في كتابه A Grammar of Arabic Language وقبل ذلك توسع النحاة العرب في احتمالات المصدر، وقالوا إنها تسعةٌ وتسعون مصدرًا (تسهيل الفوائد، شرح التصريح، مجموعة شروح الشافية).

هذه إذًا مرونة عظيمة في استيعاب البنية الصرفية العربية للألفاظ الجديدة.

والاشتقاق – كما تعلمون – هو أخذ كلمة من أخرى مع تناسب بينهما في المعنى، وتغيير في اللفظ. والذي عليه أغلب النحاة – باستثناء الكوفيين – أن المصدر هو أصل المشتقات. والمصدر هو الدال على الحدث مجردًا عن الذات والزمان والمكان. وهو بهذا التعريف لا يكون إلا اسم معنى: فَهْم، شَرْح، عِلْم، نَصْر.. وهكذا، لكن الواقع والاستعمال يقول إن العرب اشتقوا من أسماء الأعيان أيضًا كما اشتقوا الفعل استأسد من الأسد، وشجَّر من الشجرة..

واشتقوا من أسماء الزمان (وهي مصادر جامدة)، فقالوا أخرف الناس إذا دخلوا في الخريف، وعندنا صيَّف وشتَّى أيضًا، واشتقوا من الحروف كما في "سَوَّف تسويفًا". وعلى أية حال فإن الاشتقاق من غير المصدر مختلف عليه، وأغلب النحاة مع أنه غير قياسي.

ماذا حدث في العقد الأخير؟

اشتققنا أفعالًا عربية بأوزان عربية من أفعال إنجليزية مستعملة في لغة الإنترنت، ولاحِظ حرف المضارعة المكسور:

على وزن فَعَّلَ: يسيِّف، يشَيِّت، بِسَتَّب، يشيَّر، يدلِّت، يليِّك، يبلِّك...

ومن وزن أقرب إلى فعلل: يَرَتْوِت، يفرود، يفرمت، يرستر...

وبحرف المضارعة فقط: يأبديت، يأب لود، يدون لود...

واستُخدم الفعل "يِعمل" في عاميته مع كلمات أخرى تجنبًا لاشتقاق فعل: يعمل سيرش أو يسيرش، يعمل سكان، يعمل سِنْد، يعمل كومِّنت؛ لأن المؤلف المجهول أو الشبح ghost writer وجد أن اشتقاق فعل من هذه الكلمات لن يكون مقبولًا، أو أنه سيلتبس بأفعال أخرى: يسَنِّد من send أو يسَكِّن من scan .. وهكذا.

والقليل من هذه الأفعال الإنجليزية استعملوا مقابلها العربي في التداول، مثل: يرفع، ينزِّل، يحمِّل..

وهناك سبيل آخر هو الاشتقاق من الجذور العربية المتاحة: مجهر، مصعد، مأساة، ثلاجة، شاحنة، مظاهرة، عولمة، معلوماتية، تشرذم، عالِق...

وهناك سبيل التوسيع الدلالي للثروة اللفظية المتاحة بإلحاق مدلول جديد بلفظ مستعمل: تقدم، نهضة، مطار، سيارة، محطة، دبابة، عميل، صوَّت تصويتًا، تنويم، تحرُّش، عميد (قديمًا من يعتمد عليه – حديثًا عميد كلية dean – عميد جيش colonil – عميد الدبلوماسيين أو المراسلين doyen).

هناك تعريب الألفاظ بهيئتها الصوتية والصرفية أو بالإلحاق: برلمان، ديمقراطية، أكاديمية، كمبيوتر...

يمكن أن نضم إلى آليات التحديث بجانب إضافة الألفاظ والتراكيب والأساليب الجديدة استبعادَ أو هجر ألفاظ وأساليب لم تعد ملائمة للعصر أو لبيئتنا وثقافتنا.

قللت العربية المعاصرة من استعمال بعض الصيغ، فمثلًا استعملت بدلًا من نون التوكيد مع المضارع لأفعلن: أقسم أن أفعل كذا، أو أؤكد أو أكد أنه سيفعل كذا، أو مؤكدًا أنه... وهكذا.

فيما يتصل بالأساليب ونظام الجملة:

لا يقع التغيير كثيرًا في قواعد النحو والتراكيب الرئيسة، لكنه يكثر في الفرعية، من ذلك حالة الربط الإضافي التي شاع فيها الفصل بين المتضايفين بالعطف: (اتجاهات وميول الباحثين اللغويين المحدثين)، ويتصل بذلك أيضًا التوسع في استعمال المصادر متواليةً بخاصة في العناوين الصحفية: احتمال سقوط أمطار، احتمال منع تصدير السلع...

فرض الالتباسُ الحادث بسبب إهمال العلامات الإعرابية على اللغة التزام البنية التركيبية (الحرص على الموقعية) وأهدر المرونة في التقديم والتأخير التي عبر عنها (وعن غيرها) ابن جني عندما تحدث

في باب "شجاعة العربية" في كتابه "الخصائص". لقد كانت العلامات الإعرابية تحمي البنية التركيبية، كذلك الحركاتُ الخاصة ببنية الأفعال.. كيف أميز تركيبيًا ودلاليًا بين أَحْضَرَ، أُحْضِرَ، أَحَضَرَ، وكذلك في الضمائر أنتَ وأنتِ. إن هذا يعرقل القراءة بسبب اللبس.

التوسع في استعمال المنصوبات: إطلاقًا، رسميًا، حديثًا، عربيًا، عالميًا، حتى وصل الأمر إلى: عراقيًا (أي فيما يتصل بالشأن العراقي نجد كذا وكذا).

التوسع في استخدام حرف الجر الباء: بلطف، بشدة، بحرارة، بهدوء.

تأثرت الجملة العربية بما تترجمه عن اللغات الأجنبية، فاتسعت المسافة بين المسند إليه والمسند: "**الدولة** في تعاملها مع مواطنيها على المستوى الداخلي، وفي تعاملها مع الآخرين على المستوى الخارجي **تتبع** سياسة المصارحة".

الفصحى لا تجيز عود الضمير على متأخر إلا في سياقات خاصة وردت في بعض شواهد الشعر القديم، لكنه جائز في لغات أخرى نقلنا منها هذه البنية:

"ضمن زيارته الأخيرة إلى منطقة الشرق الأوسط وزير الخارجية الأمريكي بدأ أمس زيارته إلى السعودية".

"حاملًا رسالة أخوية من الرئيس أبو مازن، وزير الخارجية الفلسطيني يزور القاهرة"...

هل يمكن أن نسهم في علاج الأمر في سبيل تحديث اللغة وعصرنتها؟

- ✓ أن ندخل الفصيح والصحيح بجانب الحديث المرفوض، ونلح عليه في الإعلام ووسائل التواصل؛ لأنه سيسود يومًا دون أن ننشغل طول الوقت باستهجان الواقع وتحكيم المعيارية.
- ✓ ألا نبادر برفض كل جديد، وأن نتذكر أن تداخل المستويات مسألة تعرفها العربية عبر تاريخها الطويل، وأنها ستبقى حتمًا.
- ✓ هل يمكن أن نقبل قدرًا من العامية الراقية؛ لأنها ليست رجسًا من عمل الشيطان، نقبلها بقدر.. ونقبل إبداعاتها.
- ✓ ألا نتردد في بحوثنا في دراسة الواقع اللغوي بكل ما فيه من انحراف عن المعيار الصحيح حتى نتمكن من الإصلاح.
- ✓ تنشيط الهيئات والمؤسسات المعنية بالعربية في مجال صناعة المعجمات الحديثة لتسهم في مواكبة العصر وثورته اللغوية.
- ✓ هل يمكن أن نحرص على الحديث بالعربية المعاصرة في صورتها الجميلة المحببة في كل شأن علمي وأكاديمي وتعليمي وثقافي؟

أتصور أننا يمكن أن نفتح بابًا للأمل إذا استطعنا أن نفعل ذلك...

* * *